المبحث الثاني

دراسة البلاغة من منظور أسلوبي

عني العرب القدامى منذ القدم بعلم البلاغة الذي يعد من أبرز العلوم وأشرفها عندهم لأنها كانت من الأدوات المهمة لفهم القرآن الكريم وإدراك إعجازه، وهذا بدوره دفع الباحثين إلى فهمها ودرسها حتى أصبحت علماً مستقلاً ذا قواعد وأصول.

إن البلاغة التي نرى بين أيدينا الآن أصبحت علماً مستقلاً مميزاً من العلوم الأخرى لم توجد دفعه واحدة ولم تكن ثمرة لجهد عالم معين من العلماء أو حقبة من الزمان، ولكن هذا العلم كان ثمرة لجهود كثير من العلماء على مر العصور، تعددت مناهجهم واختلفت ثقافتهم وشاركوا جميعاً في بناء هذا الصرح البلاغي الكبير(١).

وإذا تتبعنا البدايات الأولى لنشأة هذا العلم وصلنا إلى العصر الجاهلي الذي كان الأدباء والشعراء فيه يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور، وكانوا يسوقون أحيانا ملاحظات لا ريب في أنها أصل الملاحظات البيانية في بلاغتنا العربية، ثم في العصر الإسلامي أخذت تنمو العناية بالكلام بفضل ما جاء به القرآن الكريم من الفصاحة والبلاغة، وإذا تحولنا إلى العصر الأموي ازدهرت الخطابة ازدهاراً في أثر تحضر العرب ونمو معارفهم، أما العصر العباسي فقد اتسعت فيه الملاحظات البيانية لأسباب مختلفة ومنها تطور النثر والشعر مع تطور العقلية الحضارية، نجد نشوء طائفتين أحداهما عنيت باللغة والشعر، والأخرى بالمناظرة والخطابة، كما كان لاتساع الترجمة أثر كبير.

ولا يمكن أن يذكر أثر المتكلمين واللغويين في تسجيل ملاحظات مختلفة على فصاحة الكلام وبلاغته، فنرى الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) يبسط مباحث البلاغة الخاصة في كتابه «البيان والتبيين»، كما نرى ابن المعتز (ت٢٩٦ هـ) يجتهد في هذا المجال، ثم نرى عبد القاهر (ت٤٧٤ هـ) يضع نظرية النظم في كتابه «دلائل الإعجاز»و «أسرار البلاغة» ويساعد على ازدهار الدراسات البلاغية محتلاً مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة. لكن البلاغة بدأ يسري فيها الجمود منذ القرن الرابع الهجري إثر جمود الأدب. ومن المحاولات البلاغية في هذا العصر يمكننا الإشارة إلى «نهاية الإيجاز » للفخر الرازي(٦٠٦ هـ)، وغيره وتعد هذه المحاولات دراسات جانبية وتلخيصات مبسطة، إذ لم يقتف أصحابها أثر عبد القاهر(٢).

---

(١) ينظر: المقاييس البلاغية عند الجاحظ، فوزي عبد ربه، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٥م: ٢٣.

(٢) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ: ٩-١٣، ١٩-٢٢، ٣٣-٦٢.

والبلاغة في الأصل اللغوي، تعني الانتهاء والوصول، يقال بلغ الشيء أي وصل إليه، وانتهى إليه، وتبلغ بالشيء وصل على مراده، والبلاغ ما يُتبلغ به، ويتوصل إلى الشيء المطلوب[1].

ولما كانت الثقافة العربية القديمة تقوم على المشافهة، ولم تتعمق فيها أسس التفكير الكتابي، فقد اتجهت دلالة البلاغة فيها إلى الكلام لا إلى الكتابة.

وتتخذ البلاغة هدفاً دينياً عند المتكلمين المعتزلة فتكون وسيلة إقناع وأداة هداية، يراد بها (تخير اللفظ في حسن الإفهام) [2]، ليكون الكلام البليغ على هذا المفهوم فصل الخطاب، أي الكلام الذي لا يصلح غيره في مكانه.

والبلاغة بوصفها وسيلة إقناع، يجب أن تخلو مما يعيق التوصيل، توصيل الكلام إلى السامعين، لأن تلك العوائق تؤثر في التعبير، فتجعله قاصراً عن الإفصاح والإفهام.

اما في الاصطلاح فقد ذهب القزويني إلى أن (البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته... فالبلاغة صفة راجعة إلى اللفظ لاعتبار إفادته المعنى بالتركيب) [3].

فالبلاغة إذن تقوم على دعائم، اختيار اللفظة، حسن التركيب وصحته، اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين مع حسن ابتداء وحسن انتهاء.

---

(١) لسان العرب: مادة (بلغ).
(٢) البيان والتبيين: ج١/ ٩٦.
(٣) الإيضاح: ٩.

أما موضوع علم البلاغة فهو كما يقول الدكتور عبد الحكيم راضي (العلاقة بين هذا النص والموقف الذي سيق فيه من حيث ملاءمة النص – او عدم ملاءمته – لذلك الموقف) (١).

وبهذا المفهوم لا ينفصل عن علوم الأصوات والدلالة والنحو والتصريف، بمعنى أنه لا يستغني عن النظر فيها والإفادة منها واستغلال إمكانياتها سعياً وراء صفة « الملاءمة » هذه والتي يعتمد في تحقيقها على الإفادة من إمكانيات هذه العلوم.

ويرى الدكتور عبد الحكيم راضي: (أن علم البلاغة يعنيه السؤال عما إذا كانت أصوات الكلمة متنافرة أو متلائمة، لأن حسنها في السمع أو قبحها يتوقف على تلاؤم الأصوات أو تنافرها) (٢).

ولهذا فان العلم الذي يدرس الفروق في المعاني بين صور التراكيب المختلفة لدينا على التركيب الأنسب لموقف معين، وان هذه «المناسبة» أو «الملاءمة» هي التي أطلق عليها القدماء اسم «المطابقة» وهي لا تختلف كثيراً عن ما نسميه اليوم بـ«الموقف» هو ما أطلقوا عليه «الحال» او «المقام» فان هذا علم هو علم المعاني(٣).

ولهذا فإن قضايا الصحة اللغوية – نحويا وصرفيا ودلالياً – ليست داخلة في موضوع علم البلاغة، إذ لا تبحث البلاغة في النحو أو الصرف أو دلالة اللفظ على معناه الأصلي، إلا أننا نقول: إن البلاغة انتفعت من كل هذه العلوم واستغلالها لصالحها و هذا ما يظهر في تعريفهم للبلاغة في الكلام وحديثهم عن مجال الدرس البلاغي.

يلاحظ المتتبع لتقسيم علوم البلاغة إلى «علم المعاني» و«علم البيان» و«علم البديع»، أن البلاغي العربي قد حاول الوصول إلى وضع هذه العلوم وتقسيمها، وتحديد دور كل منها، بادئا بتحديد موضوع العلم - أي علم البلاغة- وموضوعه هو (الكلام العربي من حيث هو بليغ أو غير بليغ) (٤)، وقد جرهم ذلك إلى الحديث عن صفة البلاغة في الكلام، وانتهوا إلى أنها تعني (مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته) (٥).

ويبين لنا الدكتور عبد الحكيم راضي معنى «الحال» هنا في هذا التعريف إذ يقول: (انه الأمر الداعي للمتكلم إلى إيراد كلامه على طريقة مخصوصة) (٦)، كما نجده يعطي كلمة تقابل كلمة «الحال» هنا إذ يقول: (المقصود بها هو «الموقف») (٧)، الذي يقدم فيه البليغ عمله بكل العناصر التي تكون هذا الموقف وتحيط به من طبيعة المتلقين من

---

(١) نصوص بلاغية من مباحث المعاني، اختيار وتقديم الدكتور عبد الحكيم راضي، كلية الآداب – جامعة القاهرة، ١٩٩٦م: ٥.
(٢) نصوص بلاغية من مباحث المعاني: ٥.
(٣) ينظر: مدخل إلى علم الأسلوب، شكري عياد، ط٢، ١٩٩٣م : ٤٣.
(٤) نصوص بلاغية من مباحث المعاني: ٨.
(٥) الإيضاح: ٩.
(٦) نصوص بلاغية من مباحث المعاني: ٩.
(٧) المصدر نفسه: ٩.

حيث جنسهم وأعمارهم وثقافاتهم... الخ، فضلاً عن ذلك طبيعة الموضوع الذي يتحدث عنه.

فهذه كلها «أحوال» أو «مواقف» يجب على البليغ أن يراعيها وأن يختار لكل منها ما يناسبه من ألفاظ وتراكيب وصور بيانية، وحين يفعل ذلك يُقال إن كلامه قد جاء مطابقاً لمقتضى الحال و كلمة « المقتضى» معناها ما يقتضيه الحال أي ما تطلبه الحال وتحتاج إليه. وذا الحال قد يتطلب أو يقتضي أن يحقق الكلام أثراً معينا في متلقيه، هذا الأثر الذي تطلبه هو ما سماه البلاغيون بمقتضى الحال(١).

فإذا جاءت عبارة البليغ بألفاظها وتراكيبها محققة لهذا الأثر الذي اقتضته الحال، قيل إن العبارة طابقت مقتضى الحال، أي جاءت محققة للأثر أو المعنى المطلوب.

ويطـابق الدكتور عبد الحكيم راضي بين كلمة «الأثر» وكلمة «المعنى»، وينبه على أن المقصود بـ«المعنى» هنا هو أمر غير « الفكرة» أو«المحتوى»، ويقول (أن المراد بالمعنى هنا هو هذا الأثر الذي تتركه على المتلقي طبيعة التركيب أو خصوصيته التي تتميز بها صورته) (٢).

ومن الواضح: (أن معنى حديثهم عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، يقصدون بهذه المطابقة أن يجيء الكلام على الصفة التي تحقق الأثر، أو المعنى الذي يتطلبه الموقف أو المقام الذي يساق فيه الكلام) (٣).

ونجد أن هذه المطابقة في المعاني التي تحملها صور التراكيب المختلفة من تقديم وتأخير وحذف وذكر وفصل وقصر... إلخ، أطلقوا على المعاني التي تحملها هذه التراكيب اسم «معاني النحو»، إذ (إن «معاني النحو» هي تلك المعاني التي تُستفاد من صور التركيب لا من إعراب كلماته أو دلالتها) (٤). والمعاني التي تعرف بـ«معاني النحو» هي خلاف الأفكار و خلاف المحتوى، وان العلم الذي يقوم على دراستها ودراسة التراكيب الحاملة لها هو «علم المعاني» الذي هو واحد من علوم البلاغة، إذ يقوم على

رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الموقف كما يقول البلاغيون، والمطابقة المقصودة في كلامهم بين المعنى النحوي أو مقتضى الحال وبين العبارة أو الصورة التركيبية للكلام وهذه المطابقة هي الشرط الأول في بلاغته(٥).

وهنا نلاحظ أن القدماء قد ضيقوا مفهوم المطابقة وضيقوا مفهوم المقتضى، وان عناصر المطابقة بمعناها المطلق تشتمل على ما يتعلق بالأفكار والأغراض والمفردات والتراكيب، و هذا ما اجتهد فيه الدكتور عبد الحكيم راضي وكانت غايته التقريب، لأن القدماء في حديثهم عن المطابقة لم يذكروا الأغراض أو الموضوعات أو الأفكار، كما لم

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٩- ١٠.
(٢) نصوص بلاغية من مباحث المعاني: ١٠.
(٣) المصدر نفسه: ١١.
(٤) المصدر نفسه: ١١.
(٥) ينظر: نصوص بلاغية من مباحث المعاني: ١٢.

يذكروا كثيراً من الأحوال التي تجب مراعاتها من جانب البليغ[١]. وكما أن علم المعاني يقوم بدراسة كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال حتى لا يخطئ المتكلم في هذه المطابقة، فإن علم البيان يدرس كيفية تجنب التعقيد المعنوي متعاونا مع علوم الأصوات والصرف والنحو... من أجل مراعاة شروط الفصاحة[٢].

ويخلص الدكتور عبد الحكيم راضي إلى أن البلاغة (لا تبحث في « ما نقول»، وإنما تبحث في «كيف يقال») [٣]. و هذا الرأي يركز على تقنيات الأداء أكثر من تعويله على المضمون.

أي لا تبحث في مادة المعنى وإنما تبحث في صورة المعنى، أي في كيفية صياغته. وقد مر بنا أن علم المعاني هو الذي يقوم على دراسة هذا النوع من المعنى برصد صور التراكيب وتغيراتها وما تستبعده من هذه المعاني لمعرفة مدى المناسبة بينهما وبين مقتضيات الأحوال التي تساق فيها.

أما الصفة الأخرى التي يشترطونها إلى جانب صفة المطابقة فهي صفة « الفصاحة» وقد جعلوها شرطاً لبلاغة الكلام.

وقد رأوا أن الفصاحة تكون في الكلمة المفردة، وتكون في الكلام المركب وذلك إذا خلت الكلمة المفردة وخلا الكلام المركب من عدد من العيوب التي تسلبه صفة الفصاحة. فالكلمة المفردة تكون فصيحة إذا كانت خالية من عيوب ثلاثة هي (تنافر الأصوات داخل الكلمة الواحدة، مخالفة القياس الصرفي، الغرابة) [٤].

أما الكلام المركب فإنه يكون فصيحاً إذا كان خاليا من عيوب ثلاثة أيضا وهي (تنافر الكلمات داخل العبارة، ضعف التأليف وهو عيب النحو، والتعقيد، و هو عدم وضوح معنى الكلام ومنه ما سموه التعقيد اللفظي، والتعقيد المعنوي) [٥].

ينبغي إذن لكي يكون الكلام فصيحاً أن يكون خاليا من مجموعة العيوب السابقة، سواء في الكلمة أم الكلام المركب، ومعنى هذا أن على دارس البلاغة أن يعرف من العلوم ما يمكنه من تجنب العيوب المخلة بالفصاحة لكي لا يقع فيها، ومن هنا أشاروا على دارس البلاغة ان يستمد المعلومات التي تجنبه الوقوع في عيوب الفصاحة من علوم الأصوات، والصرف والنحو ومتن اللغة وغيرها، على الرغم من أن هذه العلوم ليست هي البلاغة فإن معرفتها لازمة لدارس البلاغة[٦].

وهنا يبرز سؤال عن العلم الذي نتجنب بدراسته (التعقيد المعنوي) و هو حسب ما ذكرنا احد عيوب الفصاحة في الكلام المركب؟.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٢-١٣.
(٢) المصدر نفسه: ١٦.
(٣) نصوص بلاغية من مباحث البيان والبديع، اختيار وتقديم الدكتور عبد الحكيم راضي، دار الثقافة العربية ط٢، ٢٠١٠ : ٣.
(٤) الإيضاح: ٥.
(٥) المصدر نفسه: ٧.
(٦) ينظر: نصوص بلاغية من مباحث البيان والبديع: ٥.

ويصل الدكتور عبد الحكيم راضي إلى أن البلاغيين (حددوا علوما يمكن بدراستها تجنب هذه العيوب، أما التعقيد المعنوي فإنهم لم يجدوا علما يقوم على دراسة أسبابه وطريقة تجنبه، لذلك أنشأوا علم البيان ليضطلع بدراسة هذا العيب كي يمكن التخلص منه) (١).

بذلك يتضح دور كل علم من هذين العلمين، فعلم المعاني يختص بمراعاة المطابقة، وعلم البيان يختص مع بقية العلوم اللغوية المذكورة بمراعاة صفات الفصاحة، وقد أضافوا علماً ثالثاً هو علم البديع الذي يهتم بألوان تحسين العبارة من سجع وجناس وغيرهما.

وبذلك صارت علوم البلاغة ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع الأول يدرس صفة المطابقة لمقتضى الحال، والثاني يكمل دراسة صفات الفصاحة والثالث يقوم على بحث ألوان التحسين.

الأسلوب والأسلوبية:

يقول ابن منظور في اللسان عن الأسلوب: (ويقال للسطر من النخيل، أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب الطريق، والوجه، والمذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب، كما يورد ابن منظور لفظة الأسلوب بالضم أيضا، نحو: أخذ فلان أساليب من القول أي أفانين منه، وإن أنفه لفي أسلوب إذا كان متكبراً) (٢).

أما اصطلاحاً: فيعرفه ابن خلدون بقوله: (عبارة عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي تفرغ فيه) (٣).

ويعرف الأسلوب أيضا على أنه الطريقة التي يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه، والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة من سواها، إذ يختار المفردات ويصوغ العبارات ويأتي بالمجاز والإيقاع وذلك قصد التعبير بهذه الطريقة عن قناعاته ووجدانياته، والقصد من إيراد الكلام في نسق معين هو التأثير في المتلقي الذي سيشارك المرسل أفكاره بعد اقتناعه بالفكرة والأسلوب(٤).

أما الدراسات الحديثة فقد قدمت تعريفات متعددة للأسلوب إذ يعرفه جيرو بأنه (الطريقة في الكتابة، وهو استخدام الكاتب لأدوات تعبيرية من أجل غايات أدبية) (٥).

ومن هذا نستطيع فهمه أن كل استعمال لغوي غير مقصود يخرج عن إطار الأسلوب، ولا يمكن عده إنشاء أدبيا، فالمقصدية شرط ضروري عند جيرو لوصف نسق لغوي ما بأنه أسلوب.

---

(١) المصدر نفسه: ٥-٦.
(٢) لسان العرب: مادة (س ل ب).
(٣) المقدمة، ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤ (د ت): ٥٧٠.
(٤) ينظر: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الإنشائية، احمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط٦، ١٩٦٦م: ٤٠-٤٥.
(٥) الأسلوب والأسلوبية، بيار جيرو،منذر عياشي،مركز الإنماء القومي، بيروت:٣٤.

فالأسلوب يمكن أن يتحقق ويظهر عندما يتجاوز المرسل دائرة الإبلاغ إلى دائرة التأثير والانفعال(١).

أما جان كوهين فالأسلوب عنده هو نوع من المجاوزة الفردية أو هو طريقة في الكتابة خاصة بمؤلف واحد(٢).

فهو طريقة الكاتب في التعبير عن موقف ما، وتتم الإبانة من خلال هذا الموقف عن الشخصية الأدبية لهذا الكاتب المنشئ، وتفردها عن سواها في اختيار المفردات وتأليفها وصياغة العبارات ونظمها(٣).

أن هذا التميز في اللغة والأسلوب الذي تبحث عنه الأسلوبية غالبا ما يتحقق (عن طريق خرق القواعد المعروفة للنظام اللغوي العادي،... في مستوياته الصوتية أو الصرفية أو التركيبية أو الدلالية) (٤).

وقد عرَّف جاكبسون الأسلوبية بأنها (بحث عما يتمز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا) (٥) ، واقترنت بمجالات علمية تعمل على الوصف منهجاً فهي (علم وصفي يعني ببحث الخصائص والسمات التي تميز النص الأدبي بطريق التحليل الموضوعي للأثر الأدبي الذي تتمحور حوله الدراسات الأسلوبية) (٦) ، وبذلك تحددت الظاهرة الأسلوبية، وبناءً على مفهوم «التجاوز» الذي اعتمدته جل التيارات الدراسية للأسلوب، وحاولت أن تتخذ منه إطارا موضوعيا للتحليل الاختياري. وهو يحدد الظاهرة الأسلوبية بأنها تجاوز للنمط التعبيري المتواضع عليه، وهذا التجاوز قد يكون خرقا للقوانين، كما قد يكون لجوءاً إلى ما ندر من الصيغ(٧) ، ويبارك ستيفن أولمن استقرار الأسلوبية بوصفها علما لسانيا نقديا قائلا: (إن الأسلوبية اليوم هي من أكثر أفنان اللسانيات صرامة على ما يعتري غائيات هذا العلم الوليد ومناهجه ومصطلحاته من تردد ولنا أن نتنبأ بما سيكون للبحوث الأسلوبية من فضل على النقد الأدبي واللسانيات معا) (٨).

ويعرف الدكتور عبد السلام المسدي الأسلوبية على (أنها دال مركب جذره « أسلوب» ولحقته « ية»)، وخصائص الأصل تقابل انطلاقا أبعاد اللاحقة فالأسلوب ذو

---

(١) ينظر: محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر، بشير تاوريريت، دار الفجر للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠٠٦م: ١٥٦.
(٢) بنية اللغة الشعرية: ١٥٦.
(٣) المصدر نفسه: ١٥٨.
(٤) محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر: ١٥٦.
(٥) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي: ٣٧.
(٦) الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، فتح الله احمد سليمان،مكتبة الآداب القاهرة، ٢٠٠٤م: ٣٥.
(٧) محاولات في الأسلوبية الهيكلية: ١٥٦.
(٨) الأسلوبية والأسلوب: المسدي: ٢٤.

مدلول إنساني ذاتي ومن ثمَّ نسبي واللاحقة تختص بالبعد العلماني العقلي ومن ثمَّ الموضوعي[١].

ويتدفق هذا التعبير كما يقول المسدي ذو البعد اللساني شيئا فشيئا حتى يتخصص بالبحث عن نوعية العلاقة الرابطة بين حدث التعبير ومدلول محتوى صياغته. ولعل أهم مبدأ أصولي يسند إليه تحديد حقل الأسلوبية يرتكز أساسا على ثنائية تكاملية هي من مُواضعات التفكير اللساني وقد أحكم استغلالها علميا سوسير، وتتمثل في تفكيك مفهوم الظاهرة اللسانية إلى واقعين أو لنقل إلى ظاهرتين وجوديتين: ظاهرة اللغة وظاهرة العبارة، وقد اعتمد كل اللسانيين بعد سوسير هذا الثنائي فحاولوا تركيزه في التحليل وتدقيقه بمصطلحات تتلون بسمات اتجاهاتهم اللسانية ومن بين هذا المصطلحات: اللغة والخطاب[٢].

لذلك حدد بالي حقل الأسلوبية بظواهر تعبير الكلام وفعل ظواهر الكلام على الحساسية، فمعدن الأسلوبية حسب بالي ما يقوم في اللغة من وسائل تعبيرية تبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية بل حتى الاجتماعية والنفسية، فهي إذن تنكشف أولا وبالذات في اللغة الشائعة التلقائية قبل أن تبرز في الأثر الفني[٣].

هكذا استقامت الأسلوبية مع بالي بوصفها مقطعا عموديا على كل مستويات الاستعمال في لغة واحدة من مجموعة لسانية واحدة، غير أن رواد علم الأسلوب سرعان ما نبذوا هذا التقسيم العمودي وعلى رأسهم أتباع بالي، فعزلوا الأسلوبية عن الخطاب الإخباري الصرف وقصروا عليها الخطاب الفني فأعادوا لقيصر ما لقيصر إذ لا يفنك الواقع اللساني يقر بأن الأسلوبية إنما هي وريثة البلاغة، معنى ذلك أنها بديل في عصر البدائل[٤]، ويظهر أن سيطرة فكرة كون الأسلوبية قد ورثت مناهج البحث التقليدي في دراسة البلاغة وأعلنت عن عجزها وضعفها بإزاء مناهج الحداثة في تطويع اللسانيات لغرض وضع الأسلوبية المعاصر بمكان البلاغة التقليدية إذ يصرح جيرو (أنه في الخمسين سنة الماضية شيدت في الفراغ الذي تركته البلاغة نظرية جديدة في الخلق الأدبي والتعبير، فأولا نشأت تحت أسم علم الأسلوب طرق متنوعة لدراسة التعبير، ومن ناحية أخرى وحديثا جدا تركز الاهتمام على شكل المحتوى، الذي يظهر في شكل نظام من العلامات من طبقة أعلى، محاط بوظيفته إشارية خاصة به، ويدرس هذا النظام طبقا للأنماط المستمدة من التحليل اللغوي العام... وهكذا نجد بلاغة جديدة آخذة في التكون من خلال نظامين أساسيين هما «علم الأسلوب» و «علم السميوتيك الأدبي»، والأول دراسة للشكل اللغوي، تسمى أحيانا «علم الأسلوب اللغوي»، والثاني دراسة للمحتوى تسمى « علم الأسلوب الأدبي» أو « نظرية الأدب» أو «النقد الجديد» ويستعير كل من النظامين مفاهيمه ونماذجه وطرائقه من علم اللغة الحديث) [٥].

---

(١) الأسلوبية والأسلوب: المسدي: ٣٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٥-٣٨.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤١.
(٤) ينظر: الأسلوبية والأسلوب: المسدي: ٤٢.
(٥) نظرية اللغة في النقد العربي: ٤٧٩.

وليس من شك في أن هذا التحول، أو هذه النتيجة، تعد انعكاسا لحقيقة أن (اللغة هي مادة الأديب و أن كل عمل أدبي هو مجرد انتقاء من لغة معينة، تماما كما أن التمثال المنحوت يوصف بأنه كتلة من المرمر شطفت بعض جوانبها) (١).

ويشير التشبيه الأخير إلى معضلة تتصل بطبيعة العلاقة بين اللغة والأدب، تلك هي أن الأدب (خلافا لكل الفنون، ليس له مادة وسيطة خاصة به) (٢).

ونجد أن ثورن يقول: (من المفترض أن تظل الأسلوبيات معنية أساسا بتوصيف الخصائص البنائية في نصوص معينة، خاصة النصوص الأدبية) (٣).

فمعارضة نظام اللغة في العمل الأدبي الرفيع بالاستعمال الشائع في عصر ما هو إحدى المهام الأساسية لعلم الأسلوب حتى قيل أنه (بدون معرفة الكلام الشائع وماهية اللغات الاجتماعية المختلفة،... قلما تستطيع الدراسات الأسلوبية أن تتجاوز النواحي الانطباعية) (٤).

أما الهدف من وراء هذه المعرفة فهو القدرة على (التمييز بين الكلام الشائع والانحراف الفني) (٥). وهكذا تكون الخطوة الأولى في التحليل الأسلوبي (مراقبة مثل هذه الانحرافات، كتكرار صوت، او قلب نظام الكلمات، أو بناء تسلسلات متشابكة من الجمل، وكل ذلك مما يخدم وظيفة جمالية كالتأكيد أو الوضوح أو عكس ذلك، كالغموض أو الطمس المبرر جمالياً للفروق) (٦).

وقد سبق أن ذكرنا تفرقة جيرو بين الأسلوبيات اللغوية والأسلوبية الأدبية، ويتضح من حديثه أن الفرع الأول قد انبثق عن تناول النصوص الأدبية تناولا نحويا في الفترات التي حدث فيها تفكك النظام النقدي... وهو ما دعم ارتباطها بمنطلقات البحث اللغوي(٧).

ويذكر لنا الدكتور عبد الحكيم راضي ما انتهى إليه البحث في الأسلوبيات اللغوية ويقدم نص فريمان في هذه الصدد (أن من الممكن تقسيم الجهد الأخير في ميدان الأسلوبيات اللغوية إلى أنماط ثلاثة: الأسلوب باعتباره انحرافا عن القاعدة، والأسلوب باعتباره تواترا أو تواطؤا على قالب تركيبي، والأسلوب باعتباره استغلالا خاصا لممكنات النحو، هذه الأنماط يمكن ملاحظتها بسهولة في إنتاج العقد الأخير – السبعينيات-) (٨).

ومن أهم ما يشغل أصحاب نظرية الأسلوب بوصفه انحرافا عن النمط تحديد المعيار أو القاعدة التي يقاس إليها الانحراف الذي تتميز به لغة النص الأدبي، وهذا ما يكشف عنه تعريف برنارد بلوخ للأسلوب فهو(الرسالة التي تحملها توزيعات التواتر والاحتمالات

---

(١) ينظر: نظرية الأدب، رينيه ويليك: ٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه: ٢٢٣.
(٣) نظرية اللغة في النقد العربي: ٤٨٠.
(٤) المصدر نفسه: ٤٨١.
(٥) مقدمة في نظرية الأدب: ٢٢٧.
(٦) نظرية الأدب، رينيه ويليك: ٢٣١-٢٣٢.
(٧) ينظر: نظرية اللغة في النقد العربي: ٤٨٢.
(٨) المصدر نفسه: ٤٨٢.

الانتقالية للسمات اللغوية في عبارة ما خاصة على نحو يختلف عن نفس السمات في اللغة ككل) [١] ، وعلى ذلك تبرز المفارقة إذ (أن الخلاف الأزلي والطريف بين اللغويين التقليديين وبين أصحاب دراسات الشعر، من حيث رغبة أصحاب الاتجاه الأول في إخضاع لغة الشعر لمقاييسهم، ومحاولة الآخرين أن يفلتوا من إسار هذه المعايير) [٢].

ومن هذا يمكن النظر إلى مشكلة العلاقة بين اللغة المعيارية واللغة الشعرية من زاويتين، فصاحب نظرية اللغة الشعرية يضعها تقريبا على النحو التالي: هل يعد الشاعر محدودا بمعيار اللغة القياسية؟.

أما صاحب نظرية اللغة المعيارية فيريد من ناحية أخرى أن يعرف قبل كل شيء إلى أي مدى يمكن أن يستعمل العمل الشعري مادة للتحقيق من معيار اللغة القياسية.

وبذلك تتحدد المفارقة في طبيعة اللغة الشعرية واللغة القياس فعلى حين (تهتم نظرية اللغة الشعرية في المقام الأول بالفروق بين لغة القياس ولغة الشعر، على حين تهتم نظرية اللغة القياسية أساسا بنواحي التشابه بين اللغتين) [٣].

ويصف لنا الدكتور عبد الحكيم راضي لب المشكلة في السؤال الخاص بوظيفة كل من هاتين الصورتين من اللغة وكيف تتحقق، ويعنينا هنا كيفية تحقيق اللغة الشعرية لوظيفتها ووسيلتنا إلى هذا التحقيق وهي الوسيلة التي لا تنفصل عن طبيعتها، وإذا كان فريمان يقرر أن السمة المميزة للغة الأدبية في نظر موكاروفسكي هي الطليعية أو الريادة التي تقابلها صفة الابتذال أو التكرار التلقائي، فان الأخير يصرح بأن وظيفة هذه اللغة تتحقق عن طريق الحد الأقصى من هذه الطليعية أو الريادة[٤].

أما كيف يتحقق هذا الحد الأقصى من الطليعية في لغة الشعر؟ فيجيب موكاروفسكي بأنه قد تنشأ فكرة القول بأن هذه مسألة كمية، بمعنى طليعية أكبر عدد من المكونات، وربما طليعيتها جميعا، وفي موضوع طليعية جميع مكونات اللغة الشعرية يرى الدكتور عبد الحكيم راضي أن هذا التصور (سيكون خطأ، وذلك لاستحالة مثل تلك الطليعية الكاملة في كل المكونات من زاوية التطبيق، لأن طليعية أحد المكونات لا بد أن يواكبها بالضرورة شيوع واحد أو أكثر من المكونات الأخرى،... وإلى جانب الاستحالة العملية يمكن الإشارة أيضا إلى استحالتها من ناحية التصور... لأن طليعية أو ريادة أحدها تتضمن بالقطع وضعه في المقدمة) [٥].

وعلى ذلك ندرك كل عمل شعري معكوسا على خلفية من تقاليد معينة، أي بالتقابل مع شرائع مستقرة يجيء العمل بمثابة الخروج عليها (ومن الواضح إذن أن إمكانية التعدي على معيار اللغة القياسية... لا مفر منها بالنسبة للشعر، وبدون هذه الإمكانية ما كان ليوجد،

---

(١) نظرية اللغة في النقد العربي: ٤٨٣ وينظر مصدره.
(٢) المصدر نفسه: ٤٨٤.
(٣) المصدر نفسه: ٤٨٥، وينظر مصدره.
(٤) ينظر: نظرية اللغة في النقد الأدبي: ٤٨٦.
(٥) المصدر نفسه: ٤٨٧.

وأن وصف الانحراف عن قواعد اللغة القياسية بأنها من قبيل الأخطاء، يعني أننا نرفض حقيقة الشعر) [١] و بذلك تبدو علاقة البحث الأسلوبي باللسانيات الحديثة التي قدمت انجازات مهمة في هذا الجانب فمن (المفيد والدالّ أن نقف عند أصداء واحدة من أحدث الحركات وأقواها في تاريخ اللغويات المعاصرة، أصدائها في مجال البحث الأسلوبي، فهذه الوقفة تعزز ما رأيناه من صله وثيقة بين البحث اللغوي العام و بين البحث في لغة الأدب، ومن ناحية أخرى تقدم حلقة في سلسلة الدراسات التي ترى في لغة الأدب انحرافا عن نمط الاستخدام العادي في اللغة، وهي حلقة توصف بأنها جديدة على الفكرة اللغوي في العالم، فهي الحركة التي قام بها اللغوي الأمريكي نوم تشومسكي من دراسات فيما عرف بالنحو التوليدي – التحويلي) [٢].

غير أن هناك الكثير من التساؤلات قد بدأت تتردد حول أصول هذا المنهج، فهناك احتمال أن تكون بعض هذا الأصول مشرقية أو حتى عربية إسلامية، و هو ما لوحظ من التقاء هذا المنهج في كثير من أصوله وتطبيقاته مع الأصول التي انطلق منها اللغويون العرب والمسالك التي لجأوا إليها في تطبيقاتهم[٣].

فقد انطلق أصحاب النحو التحويلي من مدخل أساسي هو عدم الاكتفاء في النظر إلى اللغة بجانبها الظاهر كما كان يفعل الوصفيون الذين أهملوا جانب المعنى في دراستهم للغة، فقد وقفوا في معالجتهم لها (عند مستويين أحدهما أطلقوا عليه اسم «البنية السطحية» ويمثل اللغة في واقع استعمالها الفعلي على ألسنة متكلميها،... وكما يمثل المستوى الآخر الذي أطلقوا عليه اسم « البنية العميقة» وهي تمثل الأساس الذهني المجرد الذي تصدر عنه واحدة أو أكثر من البنيات السطحية و هي لا تظهر إلى محيط الاستعمال الفعلي...) [٤].

وتنطلق هذه التفرقة عند تشومسكي من التمييز بين ما أطلق عليه «الأداء» أو «التحقيق»، أي الصورة الواقعية للغة في حالة استعمالها بوساطة متكلميها حسب ما تبدو في بنيتها السطحية، وما أطلق عليه اسم «السليقة» أو المعرفة الكامنة في وعي الفرد[٥].

وهذا التميز يجد مقدمة له فيما ذهب إليه العالم اللغوي دي سوسير الذي ميز بين ما أطلق عليه جملة النظام في لغة بعينها من اللغات، وما أطلق عليه فعل القول بوساطة الفرد من متكلمي هذه اللغة أو تلك من اللغات[٦] ، ويلاحظ أن (الدافع وراء

---

(١) نظرية اللغة في النقد العربي: ٤٨٩. وينظر مصدره.
(٢) المصدر نفسه: ٤٨٩.
(٣) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر، مدخل إلى علم الأسلوب، شكري عياد، حين يقارن بين حديث ابن خلدون عن الصورة الذهنية للتراكيب وبين حديث تشومسكي عن (الابنية العميقة)، ونظرية اللغة في النقد العربي، أثبت فيها عضوية المدخل التحويلي في الفكر اللغوي عند العرب.
(٤) من آفاق الفكر البلاغي والنقدي عند العرب: ٢٠.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠-٢١.
(٦) ينظر: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د.نايف خرما، سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٧٨م.: ١١٥ -١١٦.

التقسيم الأخير عند دي سوسير هو محاولة السيطرة على اللغة ودراستها باعتبار ها إحدى الظواهر الاجتماعية المستقلة التي يمكن وصفها على نحو موضوعي بعيدا عن التصورات الذهنية أو محاولات المقاربة، علي حين كان دافعه عند تشومسكي التأكيد على الطبيعة الإنسانية للغة، وأن وراء ظاهر ها المنطوق أو هذه البنية السطحية بذيات عميقة تحمل الكثير من الدلالات والأبعاد النفسية والثقافية مما يجعلها أدل على طبيعة اللغة، كما يجعل الوقوف عليها أجدى في دراسة اللغة من مجرد الوقوف عند البنية السطحية) (١).

ونجد أن تشومسكي يرى أن البحث اللغوي يتركز على وصف «السطح» اللغوي كما هو بمقاييس «المذبه» و «الاستجابة»، أي إن البحث اللغوي يكاد يعامل الإنسان بوصفه« آلة» تتحرك حسب قوانين تحددها مواقف معينة، ولم يكن على الباحث اللغوي إلا أن يطبق إجراءات معينة لكشف هذا السلوك الإنساني وعليه فإن النحو الوصفي عموما وكما تمثله مدرسة بلومفيلد خصوصا لا تقدم إلا هذه الأنماط الشكلية من خلال إجراءات الاستكشاف حسب ما أسماها تشومسكي(٢).

كما أن تشومسكي يرفض أن يكون الإنسان هذه الآلة، لأنه يفترق عنها بقدرته على اللغة، ولا شك أن اللغة هي أهم الجوانب الحيوية في النشاط الإنساني، وليس من المعقول أن تكون لها هذه الأهمية ثم تتحول إلى مجرد تراكيب شكلية يسعى الوصفيون إلى تجريدها من «المعنى» ومن «العقل» في هذا الوصف السطحي الذي صوره دي سوسير أول هذا القرن. إن دراسة اللغة حسب ما يرا ها تشومسكي لا ينبغي أن تتوقف عند هذا المنهج الوصفي بوصفه منهجاً مستقلا لا يتجاوز حدود المادة المباشرة، وإنما ينبغي أن تعيننا الدراسة اللغوية على فهم الطبيعية البشرية(٣) ، وبناءً على هذه التصورات المنهجية التي قدمها تشومسكي الذي يرى أن كل لغة تتكون من مجموعة محدودة من الأصوات (ومن مجموعة محدودة من الرموز الكتابية) (٤) ، ومع ذلك فإنها تنتج أو تولد جملا لا نهاية لها، وهنا يكمن الجانب الإنتاجي أو التوليدي لدى المتكلم فإذا كان الأمر كذلك فإن اللغة خلاقة بطبيعتها، أي أن كل متكلم يستطيع أن ينطق جملا لم يسبق أن نطقها أحد من قبل، ويستطيع أن يفهم جملا لم يسبق أن سمعها من قبل، ولهذا فإن نظرية النحو ينبغي أن تعرف كيف تنتج اللغة جملا لا حد لها من عناصر صوتية محدودة.

ومما له دلالة فيما نحن بصدده أن جهود اللغويين العرب في دراسة اللغة كانت توصف بأنها «ذهنية» وأن هذا الوصف يساق في معرض التلميح إلى تخلفها عن الأخذ بالمنهج الوصفي، وعدم النظر إلى اللغة على أنها مادة طبيعية تخضع للقياس والتجريب(٥).

---

(١) من آفاق الفكر البلاغي: ٢١.
(٢) ينظر: النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩م: ١١٢.
(٣) ينظر: النحو العربي والدرس الحديث: ١١٢.
(٤) المصدر نفسه: ١١٤.
(٥) ينظر: النحو العربي في ضوء الأبحاث اللغوية الحديثة،د. ولسون بشاي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، منشور ضمن نشاط الجمعية اللغوية المصرية: ٦.

ومن هنا جاء المنهج التحويلي ليقلب الأوضاع أو لنقل: ليعيد إلى المناهج القديمة في درس اللغة مكانتها وحيويتها، وذلك بإفادتها من هذه المناهج، واصطناعه في تطبيقاته نظرة تتوغل إلى ما وراء الظاهر، أكثر من ذلك نراه يدعو إلى ضرورة العودة إلى مناهج النحو القديمة ويشير في هذا الصدد إلى جهود العرب القدماء(١). وهذا التصور يقودنا إلى أن فكرة التحويل لم تكن غائبة عن تفكير اللغوي العرب، سواء بمفهومها أو حتى بلفظها، ويكفي أن ننظر في حديث النحاة عن «التمييز» لنرى كيف نظروا إلى كثير من التراكيب المشتملة عليه باعتبارها «محولة» عن تراكيب أخرى تؤدي نفس معانيها ولكنها تختلف في صورها التركيبة، وقد استعملوا في وصف هذه الظاهرة ألفاظا تعبر عن التحويل بالمعنى الذي استعمل به لدى أصحاب المنهج في ربع القرن الأخير(٢).

وقد عبر بعض النحاة عن هذه العملية بـ« النقل» فصرح الصيمري (٣٨٦ هـ) في حديثه عن « التمييز» بأنه { (على ضربين: أحدهما منقول عن أصله، والأخر غير منقول) ومثل لهما نحو قولك « تصبب عرقا، وحسن وجها »... والأصل « تصبب عرقهُ» و « حسن وجهه»... ثم نقل الفعل عن فاعله وجعل لما هو من سبب للتصرف في الكلام والاتساع فيه}(٣).

كما شاع لديهم استعمال مصطلح « العدول» في وصف تحول صيغة من مادة معينة إلى صيغة أخرى، نجد هذا الأمر عند عدد من النحويين واللغويين وأصحاب الدراسات البلاغية ودراسات الإعجاز وعلوم القرآن والمفسرين(٤).

ويبدو أن مفهوم المصطلح كان واضحاً، وأن اللغوي العربي كان على بينة من أن ظاهر العبارة اللغوية لا يمثل حقيقتها دائما، إذ يكون وراءه أصل يمكن ربطه به ورده إليه عند الحاجة(٥).

والملاحظ ان اللغوي العربي قد عرف أن فك الإدغام في بعض الأصول هو تنبيه - كما يقول ابن جني- نحو (أن أصل « الأصمّ»: « أصَمْمَ»، وأصل «صبٌّ»: «صَبِبُ»... على ما نقوله في نحو « استصوب» وبابه: إنما خرج على أصله إيذانا بأصول ما كان مثله) (٦).

وكذلك عرف – اللغوي العربي - أن الضمائر (ترد الأشياء إلى أصولها، وينقل السيوطي عن ابن جني أن النون المترخص في حذفها في مثل « لم يكُ» و «مِن لدُ» تعود

---

(١) ينظر: من آفاق الفكر البلاغي:٢٢، وينظر: النحو العربي والدرس الحديث: ١٢٦.
(٢) ينظر: من أفاق الفكر البلاغي: ٢٢-٢٣.
(٣) التبصرة والتذكرة، للصيمري، مطبوعات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، ط١، ١٩٨٢م.: ج١/ ٣١٦.
(٤) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر: التبصرة والتذكرة للصميري في حديثه عن الصفات المعدولة عن اسم الفاعل: ج١/ ٢٢٥، وينظر الخصائص لأبن جني في فيما قرره من أن من وسائل تقوية اللفظ لتقويه المعنى العدول عن معتاد حاله: ج١ / ١٨٤ -١٨٥، وينظر: المثل السائر، ابن الاثير و هو يستخدم كلا من مصطلح النقل ومصطلح العدول: ج٢/ ٥٠ – ٥٥.
(٥) ينظر: من آفاق الفكر البلاغي عند العرب: ٢٦.
(٦) الخصائص: ج١ / ١٦١.

إذا وصلت أي من الكلمتين بالضمير، فيقال «لم يكنه» و «من لدنه» لأن الضمير يرد الأشياء إلى أصولها) [١]. ويمكن القول بناءً على توافر هذه الشواهد والأدلة (إذنا بإزاء نظرية تحويلية متكاملة ترى في الصورة الظاهرة للغة شاهداً على بنيتها الحقيقية، وتعامل الصورة الظاهرة من نفس المنطلق الذي نفذ منه كل من دي سوسير، وتشومسكي) [٢].

وإن كان لا بد من الإشارة هنا إلى أن اللغويين العرب من المعنيين بإقرار القواعد المثالية لنظام اللغة قد وجهوا عنايتهم إلى بنيتها الأساسية سعيا من أجل إكمالها وجبر النقص الذي تكشف عنه مقتضيات الاستعمال قي صورتها السطحية[٣]. وهو التفكير الدقيق لدى للغويين في طبيعة اللغة في تقدير المخفي من الظاهر وإعادة ترتيب الأشياء لأن (الهدف من وراء ذلك هو إكمال الصورة التي يقتضيها نظام اللغة، أو بنيتها الأساسية، بصرف النظر عن حاجة المعنى الذي قد يكون مفهوما من البنية السطحية للكلام) [٤].

وهذا ما يفهم من رفض الزركشي لاعتراض الفخر الرازي على حاجة قولنا (لا إله إلا الله) إلى تقدير خبر محذوف، يقول الزركشي (لا معنى لهذا الإنكار... ثم لا بد من تقدير خبر لاستحالة مبتدأ بلا خبر ظاهراً أو مقدرا) [٥].

ثم نجده- الزركشي- يقول (قد توجب صناعة النحو التقدير وإن كان المعنى غير متوقف عليه... وإنما يقدر النحو ليعطي القواعد حقها، وأن كان المعنى مفهوما، وتقديرهم هنا ليروا صورة التركيب، من حيث اللفظ، مثالاً، لا من حيث المعنى) [٦]. والأمر في هذه الحال ليس ابتداع الدليل أو الحجة إذ ليس معنى ذلك أنهم فهموا عملية التقدير على أنها إيجاد لما لا وجود له، أو ادعاء بهذا الوجود، بالعكس، فقد فهموا من هذه العملية أنها نوع من التمثيل لبنية ذات وجود حقيقي، وإنها الأصل لهذه البنية الظاهرة التي ليست سوى صورة محورة عن بنيتها الأساسية[٧].

وإذا كان هذا موقف النحاة واللغويين من المعنيين بإقرار قواعد النظام اللغوي... يعني العناية بالبنية الأصلية للغة انطلاقا من البنية الظاهرة، فإن أصحاب الدرس البلاغي قد ساروا من اتجاه مضاد. إذ نظر أصحاب الدرس البلاغي (إلى البنية الظاهرة انطلاقا من البنية الأصلية،...، وبينما حرص المعنيون بقواعد النظام على النظر إلى البنية الظاهرة لمعرفة احتمالاتها المفضية إلى بنيتها الأصلية، حرص أصحاب الدرس البلاغي على النظر إلى البنية الأصلية لكي يعرفوا درجة التحوير التي تكون قد لحقت بنية الكلام الظاهرة استجابة لغاية البليغ من كلامه) [٨].

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي: ج١ / ٢٢٠-٢٢١.
(٢) من آفاق الفكر البلاغي عند العرب: ٢٧.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠.
(٤) المصدر نفسه: ٣٠.
(٥) البرهان للزركشي: ج٣ / ١١٥-١١٦.
(٦) البرهان للرزكشي: ج٣ / ١١٥-١١٦.
(٧) من آفاق الفكر البلاغي عند العرب: ٣٠.
(٨) المصدر نفسه: ٣١.

ولعل من اوضح الأمثلة التي تكشف عن حرص البلاغي العربي على البدء من البنية الأصلية للغة، ثم التدرج معها في مراقبة تحولها إلى بنيتها الظاهرة التي تمثل المستوى البليغ ما نجده لدى السكاكي في تصويره لمدى المفارقة بين العبارة القرآنية المعجزة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (١)، وبين العبارة التي تصور أنها تحمل أصل المعنى في العبارة القرآنية.

يقول السكاكي: (الكلام في تلك اللطائف مفتقر إلى أخذ أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى، ثم النظر في التفاوت بين ذلك وبين ما عليه نظم القرآن، وفي كم درجة يتصل أحد الطرفين بالآخر، فنقول: لا شبهة أن أصل معنى الكلام ومرتبته **الأولى:** يا ربي قد شخت، فإن الشيخوخة مشتملة على ضعف البدن وشيب الرأس المتعرض لهما، ثم تركت هذه المرتبة لتوخي مزيد التقرير إلى تفصيلها في « ضعف بدني وشاب رأسي»...، وهكذا تركت الحقيقة في « شاب رأسي» إلى أبلغ وهي الاستعارة... فحصل « اشتعل شيب رأسي»، ثم تركت إلى أبلغ وهي « اشتعل رأسي شيباً»... ثم ترك إلى « اشتعل الرأس مني شيبا» على نحو « وهن العظم مني» ثم ترك لفظ «مني» لقرينة عطف « واشتعل الرأس» على « وهن العظم مني» لمزيد مزيد التقرير...) (٢).

وعلى هذا مما سبق تقريره من انطلاق البلاغي العربي من تصور للبنية الأصلية للعبارة وهي البنية التي افترض أنها تمثل الصورة الصحيحة لها من الوجهة النحوية واللغوية عموما، ثم تتبعه لصورة المفارقة ودرجاتها التي تجيء عليها البنية الظاهرة والتي تمثل مستوى الاستعمال الأدبي، ثم ربطه بين هذه المفارقة وبين عنصر « القيمة» بمعنى الدلالات والتأثيرات الخاصة التي تحققها العبارة الأدبية واتخاذه كل صور المفارقة بين البنية الأصلية والبنية الظاهرة مجالاً لبحثه، ووصفها في مصطلحات الدرس البلاغي أو إعادة تعريفها بما يتمشى مع غايات هذا الدرس(٣). وهذا الملمح التحويلي بين الصورة الأولى للكلام وبين الصورة الثانية في تحول المعنى من التقرير إلى المجاز يرى عبد القاهر أن (الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها... فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها. مثال ذلك أن المضاف إليه يكتسي إعراب المضاف في نحو « واسأل القرية» والأصل « واسأل أهل القرية» فالحكم الذي يجب للقرية في الأصل وعلى الحقيقة هو الجر والنصب فيها مجاز...، لأنه منقول إليه عن المضاف المحذوف الذي هو الأهل والذي يستحقه في أصله هو الجر) (٤). فهناك أصل يتلوه تحويل أو نقل من حكم إلى حكم وتتحول الكلمة من دلالتها الأولى إلى دلالة مجازية بفعل التحويل إذ (إن فكرة

---

(١) سورة مريم الآية: ٤.
(٢) مفتاح العلوم للسكاكي: ١٣٧-١٣٨.
(٣) ينظر: من آفاق الفكر البلاغي عند العرب: ٣٥.
(٤) أسرار البلاغة: ٣٨٣.

الأصل المحول عنه واضحة تماما في كلام عبد القاهر وأمثلته، أما التحويل فقد تم بحذف المضاف الواقع مفعولا في المثال) [١].

هذه النظرة في تناول السمات الخاصة بالعبارة الأدبية – موضوع الدرس البلاغي – على أنها تحولات عن بنيات أخرى تتحقق فيها قواعد النظام اللغوي لم تعد غريبة في ميدان الدراسات النقدية الحديثة بفعل تراجع المناهج القائمة على دراسة الأدب من الخارج، وأيضا مع تضافر الجهود على العناية بالنص الأدبي في ذاته سواء من عرفوا بأصحاب « علم الأسلوب» أو أصحاب « النقد الجديد» أو غيرهم.

كذلك كان للمنهج التحويلي دوره البارز في توجيه الدرس الأسلوبي الحديث إلى نفس المسلك، بحيث نظر البعض إلى اللغة القياسية التي تتحقق فيها قواعد النظام على أنها تمثل الخلفية التي ينعكس عليها التشويش المتعمد في المكونات اللغوية للعمل الأدبي من أجل هدف جمالي، وقد ذهب هؤلاء إلى أن الاستعمال الشعري للغة إنما يكون ممكنا عن طريق انتهاك قواعد اللغة القياسية، وأنه كلما كانت هذه القواعد أكثر رسوخاً تنوعت إمكانات الانتهاك وتعددت إمكانات الشعر في هذه اللغة[٢].

ونشير هنا أن هذا المسلك الذي وجد المجال فسيحا في الدراسات اللغوية الحديثة إنْ يكن جديداً على الفكر الغربي في العصر الحديث فليس جديداً على الفكر الإنساني في بيئات أخرى وعصور سابقة.

وأما تطبيقاتها الفعلية في ميدان الدراسات الأسلوبية الحالية فتكفي الإشارة إلى كثرة الأبحاث التي تعالج قضية الأسلوب من وجهة نظر اللغويات التوليدية -التحويلية[٣] ، و هذا التحول الكبير الذي قدمته الدراسات اللغوية الحديثة كان له أثر كبير في تطور الدراسات الأسلوبية لأن (السبب الرئيس في القول بأن النحو التوليدي يمكن أن يكون له تأثير هام على الدراسات الأسلوبية... أن كليهما يرتبط جذريا بنفس النوع من الظواهر، وذلك لأن الافتراضات الأساسية في كل من الدارستين ذهنية، ومن الممكن القول بأن النحو الذهني هو فقط الذي يستطيع أن يقدم أساسا ملائما للأسلوبيات، ويصبح بالضرورة أن فشل اللغويات فيما قبل تشومسكي في تقديم مثل هذه القاعدة يمكن أن يرجع إلى مبالغتها في الاتجاهات غير الذهنية) [٤].

ويرى الدكتور عبد الحكيم راضي أن (تلك الاتجاهات غير الذهنية خلاف ما تقوم عليه نظرية النحو التوليدي التحويلي، وجوهر هذه النظرية هو التمييز في الجملة بين ظاهرِ وباطن، أو باصطلاح التحويليين بين«البنية السطحية» و«البنية العميقة»)[٥].

---

(١) من أفاق الفكر البلاغي عند العرب: ٤٢.
(٢) ينظر: من آفاق الفكر البلاغي عند العرب: ٤٤. وينظر مصدره.
(٣) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر: النحو التوليدي ومفهوم الأسلوب الأدبي، رتشارد أهمان، وينظر: النحو التوليدي والتحليل الأسلوبي وغيرهما.
(٤) نظرية اللغة في النقد العربي: ٤٩٠، وينظر مصدره.
(٥) المصدر نفسه: ٤٩٠.

وتمثل البنية العميقة هنا الصورة المثالية الكاملة للجملة كما تحددها شرائط الصحة النحوية، ولا تظهر هذه البنية ولا يلفظ بها، وإنما هي تكوين تقديري يحمل معنى الجملة و صورتها المثالية من الناحية التركيبية والدلالية. أما البنية الظاهرة أو السطحية فهي الصورة الفعلية المحسوسة للجملة، وهي محولة عن البنية العميقة.

ويمكن أن نضيف تأكيده بإن أي تقدم في الدراسات النحوية عامة يكون له انعكاسه على علم الأسلوب، وأن (هناك أسبابا خاصة للاعتقاد بأن التقدم إلى الدراسة اللغوية عبر فكرة النحو التوليدي سوف يكون له تأثيره على الدراسة الأسلوبية) (١).

فإن ما نلفت النظر إليه هو صدور أصحاب هذا المنهج عن فكرة المفارقة بين المثال الذهني، وبين واقع النص المحسوس، و هي الفكرة التي أثرى بها النحو التوليدي التحويلي علم اللغة ودراسات الأسلوب.

وواضح أن أهمان يحاول بالفعل أن يكيف منطلقات النحو التوليدي – التحويلي لفكرته، ومن هنا يقرر (أن المبادئ الأساسية في نظرية النحو التحويلي يمكن أن تجسد بصورة أكثر تحديداً العبارة الشهيرة لـ بوفون « إن الأسلوب هو الرجل ذاته»، وطبقا لهذه النظرية في النحو فإن اللغة يمكن أن تصور على مستويين من التحقق البنية التركيبية السطحية، والبنية العميقة...) (٢).

كما نجد أن اللغويين المحدثين يتفقون مع البلاغيين العرب في القول بفردية العمل الأدبي واختصاصه بصاحبه، و هي الصفة التي أفاض الحديث فيها النقاد والبلاغيون العرب – لا سيما عبد القاهر – حسب ما ظهر الوعي بها لدى الآخذين بالمنهج التحويلي في الدراسة الأسلوبية، وذلك في القول بفكرة الانتقاء بوصفه عملية يقوم بها الأديب ذاته من بين الإمكانات التي يقدمها النظام اللغوي العام، وهو ما يوضحه التفافهم حول عبارة بوفون (الأسلوب هو الإنسان عينه لذلك تعذر انتزاعه أو تحويله أو سلخه) (٣).

وهنا تبرز قضية أخرى يتضح فيها الخلاف بين كل من اللغويين والبلاغيين العرب من ناحية،وأصحاب علم الأسلوب من الغربيين من ناحية أخرى و هي القضية الخاصة بكيفية تحديد النمط أو المعيار الذي يقاس إليه الانحراف، وقد ذكر ذلك سابقاً على أنها تمثل صعوبة أساسية من الصعوبات التي تواجه أصحاب البحث في الأسلوب بوصفه انحرافا عن النمط، والصعوبة تتعلق بكيفية تحديده،ولكن هناك اتفاقا لدى الباحثين المحدثين على أن يكون اختياره من بين مستويات اللغة العادية المعاصرة للآثار الأدبية المطلوب تحليلها،معنى ذلك أنه يقاس انحراف النص الأدبي إلى ما يعاصره من مستوى الكلام العادي(٤).

---

(١) نظرية اللغة في النقد العربي: ٤٩١.
(٢) النحو التوليدي ومفهوم الأسلوب الأدبي: ١٨٩.
(٣) الأسلوبية والأسلوب:٦٥،٦٧-٦٦ -٧٠، وينظر: الأسلوبية، جيرو: ٢٧-٢٨
(٤) ينظر: نظرية اللغة في النقد العربي: ٥٢٥.

وهي عملية مفهومة خاصة في ضوء ما هو معروف من أن أعمار اللغات الأوربية الحديثة أقصر بكثير من عمر اللغة العربية، وأن تدوين قواعدها ومتابعة التطور في حيواتها أمر قائم وأسهل كثيرا مما تحتاجه العربية، فضلا عن وقوف اللغويين العرب في تصورهم للنمط في جانب الإعراب والتركيب على الأقل عند حدود زمن معين(١).

ومع ذلك فإن هذه النتيجة لا تغير شيئا من واقع الأمر وهو اسهام الدراسات البلاغية والنقدية عند العرب، في بحث اللغة الأدبية والنظر إليها في ضوء مغايرتها عن المستوى اللغوي العادي وتلاقيها في أكثر من موضع مع

الدراسات الحديثة في علم الأسلوب.

ومن كل ما تقدم فهناك قضية قد أثارت نقاشات كثيرة وخلافات واسعة بين الباحثين إلا وهي قضية علمية الأسلوبية، فتأرجح الأمر بين معارض ومؤيد، فأما المؤيدون فقد كثرت في تعريفاتهم كلمة«علم» أو أحد مرادفاتها أو مشتقاتها للدلالة على علمية الأسلوبية، أما المعارضون فقد خلت تعريفاتهم منها.

ويتحمس الدكتور عبد السلام المسدي كثيراً _وهو السباق_ إلى نقل المصطلح وترويجه بين الباحثين، ويرى أن التفاعل مع العقلنة التدريجية التي شهدتها العلوم الألسنية عامة والتفاعل مع مناهج البحث المعاصر المستمدة من الإلهام العلماني قد أكسب الأسلوبية مشروعية العلم(٢) ، والمنحى العلمي في المناهج الإنسانية، أثرت فيه جملة من المعطيات، فعلمية (الأسلوبية قد جاءت بسبب تطور نظرية المعرفة في الفلسفة المعاصرة، وميل ونزوع العلوم اللسانية إلى العقلنة والعلمانية) (٣).

ويذهب الدكتور سعد مصلوح المذهب نفس إذ يميل إلى عَدّ الأسلوبية علماً، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن لعلم الأسلوب عدداً من العلوم تندرج تحته مثل:علم الأسلوب التأثيري، وعلم الأسلوب الموضوعي(٤).

أما صلاح فضل فيشير في مواطن كثيرة إلى علمية الأسلوبية أيضاً(٥).

ويكفي أن لديه مؤلفاً يحمل عنوان «علم الأسلوب» ويضاف إلى ذلك أن المنظر الأول للأسلوبية «بالي» يراها علماً قائما بذاته(٦).

ونادى كثير من الدارسين بشرعية الأسلوبية وعدّوها علماً له مقوماته وأدواته الإجرائية ودعم هذا الرأي كل من جاكبسون، ريفاتير، ستيفن أولمان، باختين، وبيير جيرو

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٢٥. وينظر مصدره.
(٢) ينظر: الأسلوبية والأسلوب: ١٨-٢٨.
(٣) المصدر نفسه: ٢٣-٢٤.
(٤) علم الأسلوب، سعد مصلوح: ٢١٧.
(٥) ينظر: علم الأسلوب: صلاح فضل: ٨٢-٨٣، ١١٦، ١٤٥.
(٦) اتجاهات البحث الأسلوبي، شكري عياد: ٢٩.

وسواهم من الباحثين العرب، نحو عبده الراجحي، احمد درويش، عدنان بن ذريل، شكري عياد، منذر عياشي وغيرهم[١].

أما المعارضون لعلمية الأسلوبية ومنهم جوزيف ميشال إذ يقول: (ولا تصبح الأسلوبية علماً لاقتباسها من علوم أخرى كالألسنية والإحصائية) [٢]. ويمكن القول: إن مسيرة التجارب العلمية وطبيعة تكون العلوم تنفي ذلك.

وتمتد مساحة الباحثين المعارضين لتشمل رجاء عيد الذي يقول: (إن بعض المحللين الأسلوبيين يزعم أنه ينبغي أن يدرس الأدب دراسة علمية، و هذا أمر مشكوك فيه و من الصعب أن يحدث ذلك لأسباب متعددة) [٣]، ويذكر منها أن الأسلوبية مهما يمتد مجالها فإنها لا تستطيع أن تمتد لتغطي حقول الدراسة الأدبية بخصائصها المتعدد، وتفرداتها الفنية المختلفة[٤].

كما نجد من الباحثين الغربيين يذهب في التيار نفسه و هم غريماس، وكورتيس اللذين يقولان: (ليست الأسلوبية إلا حقلاً من الأبحاث ينضوي تحت التقليد البلاغي، ولكونها استندت تارة إلى اللسانيات طوراً إلى الدراسات الأدبية، فإن الأسلوبية لم تنج في أن تنظم نفسها داخل علم مستقل) [٥].

ومع هذا كله يتبلور تيار ثالث ضعيف يتضمن عددا من العلماء الذين يجعلون من الأسلوبية مرحلة تطورية علت الفن ولما تصل إلى العلم، في محاولة منهم للتوفيق بين وجهتي النظر السابقتين، فالأسلوبية عندهم ليست علماً حتى اليوم ولكن مع تقنيات تزداد في كل مرة دقة سوف تكون قاعدة علم في المستقبل[٦].

ومن الملاحظ فضلاً عن ما سبق أن أهم ما يميز الدراسة الأسلوبية هو أن وجهتها العلمية هي وجهة وصفية، تصنيفية، فهي تحلل وتسجل، وتصنف بدقة دون الحكم على النتائج[٧].

وإذا حاولنا أن نبحث عن علة اكتساب الأسلوبية صفة العلمية على وفق التصور السابق، فإن الأسلوبية لم تعثر على مادة جديدة في البحث، فقد سبقتها إليها الكثير من العلوم المعروفة، ولكن الذي يكسب الأسلوبية هذه العلة عثورها على منهج جديد في تناول مادة العلم، وبهذا تصبح الأسلوبية معرفة متخصصة تحليلية تجريدية غايتها إدراك الموضوعية في حقل إنساني ومنهج عقلاني.

---

(١) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: الأسلوبية في النقد العربي الحديث: ١٠، علم اللغة والنقد العربي: ٢٠، دراسة الأسلوب بين المعاصرين والتراث: ١٥٤-١٥٦، النقد والأسلوبية: ١٧١ و ٢٩٦ -٢٩٧، اللغة والإبداع: ٥.
(٢) دليل الدراسات الأسلوبية، جوزيف ميشال: ٣٨.
(٣) البحث الأسلوبي معاصرة وتراث: ١٨٣.
(٤) المصدر نفسه: ١٨٣.
(٥) الأسلوبية في النقد العربي الحديث: ١٩.
(٦) ينظر: مناهج النقد الأدبي، إنريك أندرسون: ١٨٠.
(٧) ينظر: النقد والأسلوبية، عدنان بن ذريل: ٢٩٦.

أوجه المباينة المعرفية بين البلاغة والأسلوبية:

نجد أن كثيراً من الباحثين حاول تعداد أوجه المباينة بينهما ويمكن أن نشير إلى هذه المباينات والاختلافات وهي:-

١. ان علم البلاغة علم لغوي قديم، والأسلوبية علم لغوي حديث(١).
وقد أوضحنا فيما سبق اختلاف المنهج بين العلوم اللغوية القديمة والحديثة، فالعلوم اللغوية القديمة تنظر إلى اللغة على أنها شيء ثابت، في حين أن العلوم اللغوية الحديثة تسجل ما يطرأ عليها من تغير وتطور.

٢. اعتماد البلاغة على الشاهد والمثال المجتزأ والجملة المفردة، بينما الأسلوبية غالباً ما تعالج نصا أو خطاباً(٢). وهذا حق، لكنه يمثل الفارق بين علم نشأ وتكون في القرون الوسطي، ومنهج نشأ وتكون في القرن العشرين مفيداً من تقدم المناهج الحديثة والعلوم الإنسانية.

٣. علم البلاغة علم معياري، على حين أن الأسلوبية علم وصفي(٣).

ويسأل الدكتور شكري عياد هنا هل يدخل علم الأسلوب ضمن العلوم البحتة التي لا صلة لها بالذوق؟ فيجيب هذا غير صحيح، فيجب أن لا ننسى أن مادة علم الأسلوب هي التأثيرات الوجدانية للظواهر اللغوية(٤).

٤. طبيعة الاختلاف بين الوجود والماهية، بمعنى أن الفن البلاغي قد كان هو الأساس الذي ينطلق منه الدرس البلاغي، وهذا الفن قد يكون في نظر المخالفين ذا وجود مطلق خارج النص، بينما الخاصية الأسلوبية لا يعتد بها إلا إذا كانت داخل النص(٥).

٥. وامتداداً لما سبق فهناك من يرى اختلاف البلاغة والأسلوبية في غايتيهما، فالبلاغة غايتها تشريعية تعليمية عملية، بينما غاية الأسلوبية بحثية تشخيصية وصفية(٦).

٦. وهناك من يرى أن البلاغة لا زمانية، لكن الأسلوبيات اللسانية تبحث ظواهرها بحثا تزامنيا أو تعاقبيا وبذلك فهي أقدر على مجالات كثيرة من الدرس الأدبي كالنقد وتاريخ الأدب(٧).

---

(١) ينظر: مدخل إلى علم الأسلوب: ٤٤.
(٢) ينظر: علم الأسلوب، صلاح فضل: ١٣٩.
(٣) ينظر: مدخل إلى علم الأسلوب: ٤٥.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٥.
(٥) ينظر: الأسلوبية والأسلوب: المسدي: ٥٤.
(٦) ينظر: علم الأسلوب: ١٣٩.
(٧) ينظر: البلاغة والأسلوبية ائتلاف لا اختلاف، د. سعد أبو الرضا، بحث تم ألقاه في ندوة الدراسات البلاغية – الواقع والمأمول: ٦٩٣.

٧. الأسلوبية تتضمن بعض المبادئ التي تتصل بفكرة المعيارية والتشريع والتعليم كالعدول والانحراف والاختيار.

ومن كل ما تقدم يمكن أن يتصل الاختلاف بالائتلاف ليصبح هذان العلمان البلاغة والأسلوبية من العلوم الإنسانية المتعاونة التي تتآزر في تحليل النصوص والكشف عن قيمتها الفنية والفكرية، ويحل الائتلاف محل الاختلاف والتعاون محل التباين[١].

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٦٩٤.